الدرس الثاني

المعرفة

نظرا للاهمية العلمية والدينية للدروس التي يلقيها فضيلة الشيخ سليمان المدني على طلبته في حوزته العلمية الاسلامية والتي تتناول جوانب شتى من المعرفة الانسانية والدينية وتعميما للفائدة ارتأت مجلة المواقف اعادة عرض هذه الدروس على صفحاتها ليستفيد منها طلبته وقراء المواقف ويتبصروا من خلالها في امور وشئون دينهم ودنياهم، وخصوصا ان الحاجة تظل دائما ملحة ومتجددة في مجال العلم وفي مجال التخريج الاسلامي لكثير من جوانب الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية في مثل هذه الظروف التي عمت فيها حضارة الغرب المادية وانتشر الفكر الالحادي البعيد كل البعد عن روح التوحيد وروح الاسلام السامية. وهذه الدروس والمحاضرات هي بمثابة مطارحات فكرية اسلامية ابدعتها قريحة فضيلة الشيخ سليمان المدني، متمنين ان نكون بنشرنا للدروس قد قمنا بسد فراغ يتعطش اليه القراء والدارسون.

(التحرير)

بقلم:

فضيلة الشيخ سليمان المدني

لفظ المعرفة يقصد به خصوص العلم المتعلق بالامور البسيطة، واما اذا كان العلم يتعلق بأمور مركبة فلا يسمى معرفة وانما يسمى علما، هذا ما اصطلح عليه الكلاميون والا فالمعرفة علم داخله في حقيقته.

والمعرفة بهذا المصطلح هي خصوص معرفة الله وموضوعها ابسط البسائط لا تركيب فيه ولا جزء له ومن اجل ذلك اطلق عليها لفظ المعرفة.

هذه المعرفة اختلف فيها المسلمون بعد اتفاقهم انه لا يتم الايمان والاسلام الا بمعرفة الله سبحانه وتعالى.. هل يكفي ان تكون مأخوذة من الوالدين والمربين والمجتمع ام لا بد ان تكون ناتجة عن البحث والفكر واقامة الدليل ؟ والقول الاول عليه جمهور الاشاعرة وقسم من الشيعة اي انه لا يكتفي في اسلام انسان وايمانه ان يقتبس او يقلد من والديه او مربيه او مجتمعه الذي يعيشه والقول الثاني هو عدم الاكتفاء بايمانه واسلامه الا ان تكون... عن البحث والنظر واقامة الدليل، وهذا القول عليه كثير من الشيعة وجمهور المعتزلة، فاول ما يجب على المكلف هو النظر واقامة الدليل لان المعرفة نتيجة للنظر والبحث فيكون وجوب النظر واقامة الدليل مقدم على المعرفة لانها افرع منه، بل يون اول جزء من النظر هو اول الواجبات لان النظر ليس شيئا بسيطا بل هو مركب من مقدمات فلا بد ان تبحث في موادها وهيئتها وطريقتها فيكون اول جزء من النظر وهو البحث في القضايا التي يتكون منها النظر واول واجب. ويحتج الأولون على ذلك بانه لو كان هذا الامر واجبا في الدين لكان معظم المسلمين لا ينطبق عليهم عنوان الاسلام فضلا عن الايمان فمعظم الناس لا يتمكنون من اقامة الدليل ومجرد ذهابهم للعالم لمعرفة كيفية تركيب الدليل هو في الحقيقة تقليد لانه تقليد في الدليل ولا فرق ان يكون التقليد في الدليل او في نتيجته وما دام معظمهم غير قادرين على اقامة الدليل بأنفسهم ويحتاجون الى من يقيمه لهم ويعلمهم كيفية استخدامه فيأخذون منه تعليما ومن دون نظر فينتهي الامر بهم الى التقليد، فاذا كنا لا نقول بصحة اسلامهم فمعنى ذلك اننا نحكم على معظم اهل القبلة بأنهم غير مسلمين.

وهناك اشكال اخرى اثاره الاشاعره ومن وافقهم من الشيعة على معظم الشيعة وجمهور المعتزلة وهو انه اذا قلنا بأن الاسلام لا يتم الا بالدليل وانه يجب على كل مكلف من اقامته فاذا فرضنا ان انسانا ما تراكمت عليه الشبهات فرتب ما يظنه او يجزم بكونه دليلا، ادى به الى عدم الاعتراف بالخالق سبحانه وتعالى فهل نحكم عليه بالهلاك والكفر ؟ ام نقول انه ادى ما اوجبه الله عليه ولا يكون مطالبا بشيء يوم القيامة ؟ وهذا يعني اننا نحكم على كثير من الملحدين بالفوز والنجاة وان لم يؤمنوا بالله سبحانه وتعالى. هذا الاشكال اشد صعوبة من الاول.. (فالجاحظ وهو من كبار علماء المعتزلة يذعن بأن الانسان متى ما اقام الدليل ثم اداه نظر الى نتيجة ايا كانت تلك يكون معذورا عند الله سواء ادت هذه النتيجة الى الايمان ام الى الكفر ؟

الواقع ان مقتضى القول بهذه النظرية هو التسليم بذلك والا فما معنى ان نقول انه لا يصح اسلام الانسان الا اذا كان مبنيا على النظر والاستدلال ؟ ثم نقول لمن نظر واستدل واداه استدلاله الى الالحاد ليس معذورا باعتبار ان الاصابة والخطأ لا تعود لارادة الانسان فلا المصيب بارادته ولا المخطئ

كذلك، بل هي من باب التوفيق والعناية الالهية الخارجة عن مقام الارادة الانسانية فكيف يكون من اصاب يدخل الجنة ومن اخطأ يدخل النار؟ فمقتضى نظرية العدل التي يقول بها الشيعة والمعتزلة هي ان لا يكون ذلك، بل ان من أدى ما وجب عليه سقط وما وجب عليه.

كذلك القائلون بهذه النظرية يشكلون على القائلين في الايمان اكتفاء بالتقليد باعتبار ان الخالق قد ذم اهل الجاهلية عندما تمسكوا بالاباء والاجداد «قالوا انا وجدنا اباءنا على امة وانا على اثارهم لمقتدون، قل او لو كان اباؤكم لا يعقلون شيئا ولايفقهون». والسؤال هنا استنكاري مما يدل على ان الله لم يقرهم على التقليد فاذا كان الاسلام يكتفي فيه التقليد واعتبره طريقا في تحصيل العلم والمعرفة فهذا يعني من يكون ايمانه تقليديا فهو معذور ومن لم يكن كذلك غير معذور؟ فكما يكون هناك اشكالا يحصل هنا اشكال ايضا.

الا ان الاجابة هنا اسهل من الجواب هناك، نقول ان الله في هذه الاية وفي غيرها لم يذم الاتباع بقول مطلق وانما لقوم لا يفقهون شيئاولا يعقلون اما اتباع من يعقل ويعلم فلا تتناوله الاية، فالذم لم يكن بسبب اتباع الاباء والاجداد وانما اتباعهم من علمهم ان هؤلاء ليس لهم علم (فاقد الشيء لا يعطيه) فرجوع الجاهل الى الجاهل جهل محض بخلاف رجوع الجاهل الى العالم الذي ينتهي الى نتيجة علميه، وهذا ليس مأخوذا في لسان الاية ولا في غيرها من الايات اما اتباع المسلم اباه العالم بحقيقة الدين يكون نفس اتباع الجاهل لابيه الذي يعلم انه ليس لديه اثارة من علم.

ونحن اذا نظرنا الى هذه القضية مجردة لوجدناها لا تقبل الوكالة حتى يصح ان يوكل المرء اباه او غيره فهي قضية مصيرية للانسان تلازمه حياة وموتا.. ولها الاثار الخطيرة في حياته وبعد وفاته.

من هذه الجهة تكون القوة مع القول المشهور عند الشيعة وجمهور المعتزلة وهو انه لا بد ان يكون الانسان ملما بهذه العقيدة ولكن هل يلزم لصحة ايمانه دليل مستقل به؟ فاذا قلنا ان ايمانه مبني على الفطرة فهي حاضرة مع الانسان ابدا.. وليس مفارقة عنه حتى يحتاج الى تحصيلها باعتبار انها من العلم الحضوري وليس من العلم الحصولي «فطرة الله التي فطر الناس عليها» بل ان معرفة الله للانسان لا تعود لارادته بل ترجع الى خلق الله خلقه عارفا به وحتى يتمكن الانسان من اظهار هذه المعرفة المدفونة ليس عليه الا ان يلتفت الى القضية ويحاول ازالة ركام الشبهات عن فطرته، لكن لا يصح ان يقال انه اقام ايمانه على طريق الدليل او يقال انه اخذه عن تقليد، فالايمان عريق في نفسه من حين ولادته وحتى انتهائه.

ومورد النصوص من اهل العصمة (ع) يؤيد هذا القول ولا يقول بالرأي الاول والثاني ففي الحديث عن الصادق (ع) (سئل عن المعرفة هل للعباد فيها صنع قال لا ليس للعباد فيها صنع، وانما هي من الله سبحانه وتعالى وانه عليه ان يعرف الناس نفسه ويجب عليهم ان يطيعوه) فالله عندما خلق الانسان اوجب على نفسه ان يعرفهم بها باعتبار عدم احاطة علم الانسان وذهنيته به.. ولذا نلاحظ ان فرعون اراد ان يضل اهل مصر بهذا السؤال (قال فرعون وما رب العالمين)؟

(مافي اصطلاح المناطقة هي الشارحة ان لم نقل حقيقته وهي تحتاج لشرح اللفظ بجنس قريب وفضل قريب). وفي هذا الموضوع لا يمكن الاجابة عليها الا بما أجاب موسى في جواب ماذا؟ قال ربكم ورب ابائكم الأولين. قال فرعون ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون.. اسأله بما ويجيبني بفعل فالجواب ليس مطابقا لمورد السؤال).

الحقيقة ان ذهن الانسان لم يعد للاحاطة بالذات الالهية حتى يمكنه التوصل اليها على نحو الحيطة وعلى نحو الاحاطة التامة، كما يعرف القضايا الاخرى، وانما يدرك ناحية النقص والاحتياج في وجوده لغيره ويدرك ان كل من شاركه في هذه القضية لا يصلح ان يكون سببا في وجوده، فيؤمن انه يحتاج الى سبب اعلى لا يحتاج في وجوده الى اخر مثل هذه القضية لا يمكن ان ينكرها ملحد، اي ان يدعي انه كان سببا لوجوده او ما كان له تاريخ هو سبب لوجوده ويبقى الاختلاف بين المؤمن والملحد اختلافا لفظيا.

فهذا الاختلاف هو محاولة للتهرب من التكاليف الشرعية التي تترتب على الاذعان والاعتراف بوجود الخالق.

اذن القول بأن اصل الوجود هو المادة او غير ذلك هو اعتراف من الملحد بأنه لم يكن خلق نفسه، وادعاؤه بأن الكون وما فيه لا يحتاج الى صانع او ادعاؤه مفهوما لا تحقق له كالمادة التي يستطيع هو ايضا من تعريفها فيعطيها صفة الاصل في الوجود هو اعتراف بالفقر والاحتياج الى موجد.

وملخص ما نريد ان المعرفة ليست من صنع البشر وانما هي نابعة من فطرة الانسان. صحيح انه قد تطرأ عليها بعض الشبهات فالاحتياج يكون بالانتباه وتفريغ النفس من تلك الشبهات المتراكمة حتى نحصل على المعرفة.

«للموضوع صلة»